الدعوة والعصبية

لقد كنت أتكلم في موضوع علمي مهم ، يتعلق بالعقيدة فبحثته من جميع جوانبه ، وبينت أقوال العلماء فيه ثم عرضت لرأي ابن القيم – رحمه الله – في الموضوع ، وكان مما انفرد به عن عامة المسلمين ، وبيّنتُ خطأه فيه ، ووجّهْت ذلك بالدليل والبرهان لكي لا يكون في الأمر لبس أو شبهة ، وإن كان لا يحتاج إلى دليل ، لأنه مما كاد يكون معلوماً من الدين بالضرورة

رسالة على المكتب ؟

وفوجئت بعد يومين برسالة على مكتبي من أحد الطلبة ، يشكر فيها اهتمامي بالمحاضرات وأثري في الطلاب ويثني ويؤكد الثناء بالثناء ، ثم قال : بلغني أنك تعرضت في المحاضرة الماضية لابن القيم ، وبينت خطأه في الموضوع الفلاني ، وليتك لم تفعل ، لأن أحد الطلبة ، ممن كان يكن لك المحبة والاحترام ، قد آلمه ما ذكرت عن ابن القيم ، لأنه يحبه ، ونشأ على كتبه ، ومن ثم قال : إنك سقطت من عينه ، إذ أبنت خطأ من يحب ...؟! طويت الرسالة ، ولم يكن ما وجدته فيها مفاجأة ، لأني عهدت من قبل مثل هذا الخلق في بعض من ينتسب إلى الدعوة ...

المنهج الوسط في النقد

ثم دخلت إلى قاعة الدرس ، وافتتحت بما يمس هذا الموضوع ، مما يجب أن يعلمه كل داعية مسلم ، وينتبه له ، فقلت إننا نحن المسلمين ، من علماء ... ودعاة ... ومفكرين ... عندما نثني على إنسان ما ، في موضوع ما ، لا نعني أن هذا الإنسان معصوم عن الخطأ ، ومصيب في كل ما أتاه من عمل ، وإنما نريد الثناء عليه ، فيما عرضنا له من موضوع الساعة ، أو على مجمل خلقه وسيرته ، وعندما ننقد إنساناً ما ، في موضوع ما ، لا نعني أننا نريد انتقاص هذا الإنسان ، ونفي صفة العلم عنه إذا كان عالماً ، أو صفه الداعية إذا كان داعية ، ولا نريد أن نحط منزلته ، وإنما نريد أن نبين أنه أخطأ في المسألة الفلانية ، مع المحافظة على ماله من مكانة في العلم ، وتضحية في الدعوة ن وأثر في الفكر ، إذ النقاش والنقد حول فكرة معينة ، لا حول الرجل وفكره ودعوته .

العصمة لمن عصمة الله

ونحن المسلمين لا يوجد عندنا إنسان معصوم عن الخطأ ، أياً كان هذا الإنسان ، صحابياً ، أم تابعياً ، أم إماماً مجتهداً ، أم من عامة الناس ، سوى من عصمة الله تعالى من نبي أو رسول . وما سواهم ، يؤخذ منه ويرد عليه ، كما قال الإمام مالك رحمه الله " كل رجل يؤخذ منه يرد عليه إلا صاحب هذا القبر ، وأشار على قبره صلى الله عليه وسلم " ، يستوي في ذلك عندنا كل إنسان من المسلمين ، كبر شأنه أو صغر ، علت منزلته أو نزلت ، لأننا جميعاً خاضعون لشرع الله ، وهو الحاكم علينا ،

ونحن نعرف الرجال بالحق ، ولا نعرف الحق بالرجال ، ونزن الإنسان بميزان الشرع ، ولا نزن الشرع بميزان الناس ، والدين عندنا غير منوط برجل ، لا يؤخذ إلا منه ، ولا يروى إلا عنه ، ولا يعرف إلا منه ، لأن ديننا جاء ليوجِّه الناس ، لا ليوجَّه من قبل الناس ، فما قاله أي إنسان في الدنيا نعرضه على مصادر التشريع ، فما وافقها أخذنا به ، وما خالفها أعرضنا عنه ، ولا يغيّر هذه القاعدة مكانةُ الرجل ولا منزلته .

الحق لا الرجال

وإنما يعرف الحق بالرجال عند غيرنا من الوثنيين . الذين اتخذوا من الرجال أرباباً من دون الله ، فما رضوا عنه ؛ فهو الحق وما سخطوا عليه فهو الباطل ؟ وإن كان في الواقع خطأ ، فأنزلوا الناس بمنزلة الله ، ولا كذلك نحن المسلمين ، وليس عندنا من يقال فيه ، لا يسأل عما يفعل إلا الله ، أو من أوجب الله على الناس طاعته من نبي أو رسول .

وإن مما يخلّ بمكانه الرجل ، وينزل بمرتبته ، إن يوضع في منزلة غير منزلته ، فمن زعم أن زيداً من الناس معصوم لا يخطئ ، فقد وضعه في منزلة غير منزلته ، ألا وهي منزلة الله ، أو الرسول ، وهذا هبوط بالإنسان .

إذ الهبوط بالمرء عند العقلاء أن يوضع في غير موضعه ، علا الموضع أو نزل ، لقد جاء الإسلام ليخرج بالناس من عصبية الجاهلية المنتنة ، إلى سماحة الدين الغضة ، ومن التحيز لقبيلة أو جنس أو لون إلى العدالة والمساواة بين جميع الخلق .

النقد للإصلاح

ولقد علمنا رسول الله - r - أن ينقد بعضناً بعضاً من أجل الإصلاح ، فجعل المرء مرآة لأخيه ، وأمرنا أن نقبل النقد ، لأن كل بني آدم خطاء ، ولقد علمنا أصحاب رسول الله - e - وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون – بسلوكهم العملي ، كيف يرضى الإنسان المسلم بما يوجه إليه من نقد ويستغفر مما كان قد وقع به من خطأ .

أسلوب الصحابة

لقد رد عبد الله بن عباس ، وهو من أصغر الصحابة سناً ، على أمير المؤمنين ، الفاروق عمر بن الخطاب - t - في كثير من مسائل العلم ، ولم يقل أحد من الناس إن ابن عباس أخطأ لأنه رد على عمر ... ، ولم يفهم أحد من الناس أن ابن عباس كان ينتقص عمر أو يحط من شأنه ، بل ردت عليه امرأة ، وأبانت عن وجه خطئه ، وقَبِل .

واستدركت عائشة – رضي الله عنها – على العشرات من كبار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يفهم أحد منهم أنها أساءت ، لأنها بينت خطأ أو وهم من أخطأ أو وهم ، ولم يفهم أحد من الناس أنها كانت تنتقصهم ، أو تحط من شأنهم .

بين الشافعي ومالك

ورد الشافعي على مالك ، في كتاب كامل " كتاب الوضع على مالك " ولم يقل أحد إن الشافعي أساء ، أو أنه انتقص مالكاً ، كيف...؟ وهو القائل فيه : إذا ذُكر العلماء فمالك النجم ، وكان تلميذاً له ، تفقه عليه ، ورَوَى عنه ، لأن الأمر ليس أمرَ شخص ، وذات ، وهوى ، وإنما هو أمر دين يستوي فيه قَدَمُ الجميع ، والحق أحق أن يتبع .

بين القاضي والشافعي

لقد كان القاضي عبد الجبار من أشد الناس تمسكاً بأصول الشافعي ، شديد الدفاع عنها ، ولما وصل إلى مسألة نسخ الكتاب بالسنة – والشافعي يقول : لا ينسخ الكتاب بالسنة ، ولا السنة بالكتاب ، في مذهب خاص له ، انفرد به عن جمهور الأصوليين ، وعلى تفصيل فيه ، ليس هذا مكانه – عندما وصل القاضي إلى هذه المسألة قال :

الشافعي كبير ، والحق أكبر منه ، ألا إن القرآن ينسخ السنة ، والسنة تنسخ القرآن ، ولم يقل أحد من الناس إنه أساء ، وإنما قالوا ولا زالوا يقولون ، إن القاضي من أشد الناس تمسكاً بأصول الشافعي ، إلا أن القاضي أنزل الشافعي منزلة البشرية ، ورد عليه فيما يعتقد أنه خطأ ، ومن قرأ كتب فقهاء هذه الأمة وجد أمراً عجباً من حرية الرأي – ضمن الضوابط والقواعد العلمية – وحرية النقد والاختيار ، ما لم يكن هوى .

بين الأمس واليوم

وكان هذا دأب سلف هذه الأمة ، وخلفها ، من العلماء ، والدعاة ، إلى أن وصلنا إلى ما نحن فيه من عصبية ، كادت وللأسف أن تذهب برواء كثير ممن يتكلمون في هذا الدين ، ويدعون إليه .

الرأي والهوى

فوصل بعض الشباب إلى مرحلة ، إذا تقلد فيها رأياً ، عَمِيَ عما سواه ، وأصم أذنه عند سماعه ، وكأنه أوحي إليه أن الله قد جمع الحق في هذا الذي أشرب قلبه بمحبته ، فهو ليس بمستعد لسماع أي نقد ، أو أي نصح ، أو أي اعتراض ، ومن ثم فهو ليس على استعداد لأن يعتقد أن هذا الذي اعتقد رأيه قابل للخطأ...؟

بعض الشباب قرأ لسيد قطب – رحمه الله - ، وأسكنه فسيح جناته – وتعشق كتبه وأفكاره وإلى هنا نعتبر هذه فضيلة ، ونقبلها ، إلاّ أنه وصل الأمر ببعضهم إلى ما ذكرت ، مما وصفت من العصبية المفرطة لكل ما قال ، وهذا لا نقبله .

وبعضهم قرأ لأبي الأعلى المودوري – رحمه الله ، وأسكنه فسيح جنته – وصار أيضاً أمره كما ذكرت .

نحن لا ننكر أن سيداً ، وأبا الأعلى وغيرهما ، قد أثروا المكتبة الإسلامية بتراث فكري كان ينقصها ، وسدوا ثغرة من ثغر العلم ، وجهروا بمبادئ الحق ، وزيّفوا أباطيل الخصوم ، وجزاهم الله عن كل من قرأ لهم واستفاد منهم خيراً .

إلا أن هذا لا يعني أنهم معصومون ، بل هم من بني آدم الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم " كل بني آدم خطاء ..." .

وربما جاء من بعدهم يساويهم ، بل يفوقهم ، وفضل الله واسع ، يؤتيه من يشاء ، ولكل مجتهد نصيب ، ولم يخل ذلك بمرتبتهم ومقالهم ، فإذا ما سمعنا اعترضا على أحدهم ، ممن ألِفنا و أحببنا ، لا يجوز أن نرد الدعوى والاعتراض ، لأنه قائل الكلام فلان ، فلا أعترض عليه ، ولا يخطئ ، بل نسمع الاعتراض ، ونناقشه ، فإما أن نقتنع ، وإما أن نقنع .

الفكرة لا أصحابها

والجدل يجب أن يدور حول الفكرة المعترض عليها ، لا حول قائلها ، لأن قائلها لم يقل هذه الكلمة فقط حتى يصبح رهيناً لها ، ولن ينقصه أن يثار حول بعض آرائه الجدل ، لما ذكرت من سلوك سلف هذه الأمة وخلفها ، وكفى المرء نبلاً أن تعد معايبه .

الغلو في النقد

وعلى العكس من ذلك نجد إنساناً آخر ، يغالي في النقد ، ويفرط فيه فيأتي إلى كلمة جرت على لسان أحد الأئمة ، ويجعل منها شخصية الرجل الكامل ، ومن ثم يفجرها فيه ، ليذهب بكل فضل له من أجلها .

كمن يأتي إلى كلمة جرت على لسان حسن البنا رحمه الله ككلمة القومية ، أو الجمهورية ، أو غير ذلك ، ويحاول أن يتخذ من مثل هذه الكلمات ذريع إلى هدم (أفكار) حسن البنا ، وأنه كان لا يفهم الدعوة ، وأنه كان وكان... ويغمض الطرف عن كل ما كان من فضل لهذا الداعية العظيم ، وينسى كل كلماته ، وأقواله ، وينسى تضحيته وجهاده ، وينسى أنه هو الذي أنشأ الجيل الجديد الذي سوف يعود للإسلام على يديه – بإذن الله – عزته وكرامته ، والذي يمتد اليوم من شرق الأرض إلى غربها

ولقد أذهلني والله حين قمت بزيارة لبعض دول جنوب شرق آسيا في الصيف الماضي ورأيت مئات الآلاف من الشباب يسيرون على قدمه ، ويعتنقون الدعوة طريقه ، ولو أن حسن البنا لم يقل في حياته إلا هاتين الكلمتين فقط لسلمنا لذاك المعترض اعتراضه ، ولجرينا في الرجل مجراه ، إلا أنه قال الكثير ، وفعل الكثير سواهما ، مما أضاء الطريق لكثير من السالكين .

فمن الخطأ أن نترك كل فضله ونمسك ببعض خطئه .

نعم... ونحن نقول كما يقول... لا نؤمن بالقومية ، ولا بالجمهورية ، ونعتبر هذا خطأ ، إلا أنه لا يذهب بمكانة قائله ، ولا يسقطه ، لأنا نعلم يقيناً ، أنه ما قال ما قاله إلا اجتهاداً أخطأ فيه ، ولقد عفَي الله عنه ، ونسأله أن يؤجره أجراً واحداً عليه .

الهوى أعمى

ومن هذا القبيل ما يكون من بعض الدعاة الذين يتخذون الدعوة وسيلة لتثبيت مواقفهم ، وتدعيم آرائهم ، وإن كانت مواقفهم وآرائهم خاطئة – وعلى حساب الدعوة .

يختصم اثنان حول فكرة ما ، أو حول أمر معين ، فما يكون من أحدهما إلا أن يذهب إلى أصحابه ، الذين يؤمنون بفكره ، ويقول لهم : إن فلاناً اعترض علي ، أو علينا ، وما يكون منهم إلا أن يقاطعوه ، بل يذموه ، دون أن يعرفوا وجه اعتراضه ،

ودون أن يناقشوا رأيه ، أو يسمعوا كلامه ، بل لمجرد سخط فلان عليه ، أو لمجرد اعتراضه ، فجعلوا من أنفسهم إمعة يأباها الإسلام ، و يأباهم الخلق الإسلامي الكريم

ولقد حفظوا جميعاً أن الله عاتب نبيّه داود إذ تسرّع بالحكم في مسألة النعاج ، دون أن يسمع من الخصم ، وعرفوا جميعاً أن هذه عصبية يمقت الإسلام عليها ، وأدركوا جميعاً أننا يجب علينا أن نبني آراءنا في الرجال على قواعد العقل و الدين ، لا على قواعد العاطفة والهوى ، وإن هذا الميزان يقول : لا يمكن أن ينقلب الرجل ، وبلحظة واحدة ، من صديق إلى عدو ، دون أن يحدث أي تغيير في فكره أو دينه بل لمجرد أنه رأى رأياً يخالف رأي من يحب ، أو اعترض عليه ، وتزاد الثقة ، ويتسع الخلاف ، وينقض العدو فيفتك بالفريقين ، بعد أن تفرقا ففشلا ، فذهبت ريحهما .

ولولا أن الظروف لا تسمح لي بالكلام التفصيلي لسردت من الوقائع والأرقام ما يشيب له رأس الداعية ، مما يعانيه إخواننا المسلمون في الدعوة اليوم .

الإنصاف ، الإنصاف

ولذلك يجب علينا جميعاً أن نتحلى بفضائل الإنصاف ، وأن نعلم أن الأشخاص ذاهبون ، وأن الدين باق ، وأن الأشخاص محكومون ، وأن الشرع حاكم ، وأن كل إنسان يؤخذ منه ويرد عنه إلا صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم .

ولا يجوز بحال من الأحوال أن يكون المرء إمعة ، إن أحسن الناس أحسن ، وإن أساءوا أساء .

فما جاء الإسلام إلا لينقذنا من العصبية ويبعدنا عن الهوى والله الموفق والهادي إلى سواء الرشاد .